على هامش «أمهوم شهرزاد»

قضية اليـــوم

للأستاذ دريني خشبة

قالت فاتنة : « عجباً لك ياصديقي ! لست أعرف سبباً لترددك هـذا الذي طال ، وخوفك ذاك الذي سمج ، وإشفاقك الذي لم تعدْ له علة ؛ فها أنت ذا تعيش ملء القاهرة ، وها هم أولاء أخدان الشباب من حولك ما تزال قلوبهم عامرة بالشباب ؛ ونفوسهم ممتلئة بالفتوة . وهاهي ملاعب أُنسك ، ومراتع هواك ، يرقص فيها ماضيك ريان كما عهدته ، فيتانٌ كما حلمت به ، فالام تظل راكداً هكذا ؟ وحتّـام تغفو عيناك وكل ما حولك صحو ؟ ! أخشى أن يكون إشفاقك من الكتابة عني ، وقد ملأت أذنيك شدوا ، ومهجتك غناء ، هو ما ترى من القطيعة الشاحبـة التي قامت بين أئمة الأدب في هذا البلد ، وقالات السوء التي يرسلها الألسنة المغرضون لتعبس الجنة الباسمة ، ويصمت الطير الصادح ؛ وليكون نعيبهم وحـده هو المسموع في الآذان ، المدوّي في الأذهان ، مهما يكن شأنه من الهوان ... كلا يا صديقي ... لا عليك من هذا أبداً ، فأئمة الأدب في هذا البلد أعظم من أن تمزق وحدتهم الأقاويل ، وأجل من أن تذهب بريحهم عصبة الألسنة من مروّجي الأكاذيب ... يجب أن تكتب عني إذن وأنت آمن مطمئن ، فقـد بلوتَ من ألوان الأساطير وفنون القصص ما ينبغي أن يوقظ فيك جمالي ، ويلفتك إلى سحري ، وينبه فيك روعتي التي أبدعها خيال صاحبك الصناع الفنان ... ولن يُعفيك من الكتابة عني ما أرجف به المرجفون عقب أن تلَـهّوْا بقراءتي في سيارة أو في عربة ترام ، فلست من الهوان بحيث أُقرأ هكذا ، وبحيث يفرُغ القارئون مني على هذا النحو ، فأنا قطعة أدبية خالدة ، ولن يسأمني الناس مهما أكبوا عليّ ، ومهما أدمنوا تلاوتي ... إنني أروع لوحات الفن في عالم الأدب المصري الحديث ... وأعيذك من أن تظن بي الظن ، أو تأخذ على اعتداداً بشخصي القوي ، ولن أقول الضعيف تواضعاً ، فإن عرفاني بقيمتي يباعد بيني وبين التواضع ... والتواضع أكبر رذائل الأديب ما لم يكن مصدره الغرور ، إذ يصبح فضيلة يجمل أن يتحلى بها ليريح الناس منه ... أنت إذن تخشى شيئين ... أولهما هذا الفتور الذي قام بين (صاحِبَيْ القصر المسحور) فباعد بينهما إلى حين ، وجعل الكلام عنهما كهذا الشوك الذي ينبت في أعواد الورد ، فيخيف الأيدي الناعمة من أن تمتد ، والأرواح الظامئة من أن تتطلع ... أما ثانيهما فهو كتابتك في « الرسالة » عن صاحبي ، أي عني ... و « الرسالة » هي التي ولـكان عصفورك مثلاً حيًّا لعصافير المصريين .

فوا رحمتاه للعصافير السمراء ، حين تحب الحمائم الجميلة البيضاء ! ويا لها من نشوة دونها كل نشوة ، فيها عذوبة وفيها عذاب ؛ ولـكنها حياة لا تعدلها حياة .

قد يسأل سائل : أليس من العجيب أن يحب العصفور الآدمي الصغير الحمامة الآدمية الجميلة ؟ أليس بينهما تفاوت قائم وتبـاين ؟ فـكيف يتم بينهما توافق دائم ووئام ؟ بلى إنه لعجيب ؛ ولـكنه عجيب في حكم العقل والمنطق وحدهما ؛ ولـكنه في حكم الطبيعة والعاطفة مفهوم ولا يفهم سواه . والحب لغز من الألغاز تجري في دائرته المرنة عملية الجذب والانجذاب ، فلا ملام ولا عتاب .

على أني كثيراً ما تمنيت لو أن كل عصفور من الشرق أو الغرب أدرك حكمة الأيام في كل زمان ومكان وهي أن المرأة إذا استقوتك استعطفتك ببكائها ، وإذا استضعفتك قتلتك بكبريائها . إذن لـكان نصيبه من متع الحياة أعظم وأكمل ، ولـكانت شقوته بها أقل وأضأل .

ولـكن كيف يدرك العصفور ، حكمة الدهور ، قبل أن يتنقل بين الزهور ؟

إليك يا صديقي خالص التهنئة على ما أدركت من توفيق ظاهر في كتابك الخفيف الظريف . وإليك كذلك خالص الشكر على الهدية وعاطر الثناء على كرم الإهداء والسلام .

١٠ مارس سنة ١٩٤٢ (محمد كامل سليم)

نشرت تلك الكلمات التي نفثها صاحب « شهرزاد » فيما شجر بينه وبين صاحب « فاتنة » أي صاحبي . . . والرسالة أيضاً لها « وَعكتها » التي فَتَرت العلاقات بين صاحبها وبين أعز أصحابه عليه ، وأحبهم إلى نفسه ، لأنه زميل الصبا ، وخدن الشباب ، وصاحب الحق الأول في مؤاده ، والشريك الذي بنى معه صرح هذا الأدب في مصر . . . لا لا يا صديقي ، دَعْ ما يريبك من أمر الصداقات إلى ما لا يريبك من أمر الأدب ، فللصداقات عتاب يحلو أو يمر ، وللأدب نقد يسلس أو يقسو ، وينعم أو يعنف ؛ والصداقة شيء ، والأدب شيء آخر . ولن يقلب النقد صداقة من الصداقات فيجعلها عداوة إلا في الأمم الصغيرة الفقيرة من القلوب الكبيرة ، فإذا عرضت لما أرجف المرجفون عن « شهرزاد » وعن « أحلام شهرزاد » وما تخرصوا به من أخذ هذه عن تلك ، فإنما تعرض لموضوع أدبي لم يشدُ منه المتخرصون إلا ألفاظاً أو عبارات لا كيل لها ولا وزن . وهم قد أوردوها ، حينما أوردوها ، ليوهموا أنهم بلغوا بها لباب النقد الصراح ، وقطعوا بسقطها جهيزة كل خطيب . . . أما صاحب الرسالة ، والكلمات التي نشرها لصاحب شهرزاد ، فصحيفته كانت وما تزال صحيفة الأدب والنقد الخالص البريء . . . وآية ذلك أنني تعمدت أن أختارها لك لتكتب عني فيها ، لتقطع ألسن المرجفين والخراصين ، ولتفتح أعينهم التي غشيت إن لم تكن قد عميت ، على صورتي الرائعة التي هي ابتكار جديد لم يسبق أحد صاحبي إليه ، ولا استطاع أحد أن ينبت في جنة شهرزاد زهرة أينع منها ، ولا أعبق من شذاها شذى . . . هذه كلمات سيضيق بها النافسون على صاحبي أشد الضيق ، ولكن قلها ولا عليك مما ينفسون من شيء ، فلن يضر زحار الغل إلا أهله ، ولن يأكل إلا قلوب أصحابه . . . ثم لا تنس أن صاحب الرسالة هو الرجل الذي أثار موضوع النقد منذ أعوام فجلاه أحسن تجلية ، واستبقت الأقلام وراء قلمه تؤيد ما يقول ، وتفصل ما يجمل ، وأنك أنت يا صاحبي كنت أحد الكاتبين فيه ، المؤيدين لوجهة نظر صاحب الرسالة . . . ثم أذكر أنه صرح لك بجمالي ، واعترف روعتي ، وحسبك أن يصرح الزيات بجمال فاتنة ، وروعة فاتنة ، لتكتب أنت عن فاتنة . . . أما أختي . . . أما شهرزاد التي ملأت أحلامها ، فأنت الكفيل بأن تنافح عنها ، وتكافح في سبيلها ، وأنا ضامنة لك أنك منصفها من هراء ما أرجفوا به عن غير علم ، وجُفاء ما شقشقوا به بغير هدى ولا كتاب منير . . . ويدعي الخرّاصون أن صاحب شهرزاد قد أصبح أنانياً ، وذلك أنهم قالوا إنه غضب لأن زميله في القصر المسحور قد كتب في « شهرزاد » كتاباً مستقلاً ترجم به عن أحلامها ؛ كأن شهرزاد لم تكن موجودة منذ قرون ثم وجدت ، أو كأنها شيء من ابتكار هذا الجيل فلا يصح إلا أن تكون حبساً على فلان أو فلان من زعماء الأدب الحديث . . . ولو عقلوا لتأدبوا أولاً ، ثم لعلموا أن الوقيعة على هذا النحو شيء خسيس لا يليق بكرامة نهضتنا ثانياً ، ثم لذكروا أن صاحب شهرزاد ليس أنانيا وأنه صاحب فطنة ونباهة ، وأنه ليس من الخفة بحيث ينطلي عليه ما زعموه له من السرق

وإن الذي بيني وبين بني أبي وبين بني عمي ... ...

ومختلف جداً ما جاء في شهرزاد وما جاء في أحلامها ، وشهرزاد تلك مغايرة لهذه في طبيعتها وفي خلقها وفي شهوتها البهيمية وفي وسائلها وفي أصحابها ، وفي الملعب الذي شهد حياتها مذ وجدت ومن قبل أن توجد ، بل هي مغايرة لها في كل شيء ؛ حتى في الهواء الذي تتنفسه . بل هي مغايرة لها في كل شيء حتى في المؤلف الذي كتبها ، وفي القلم الذي كتبت به ... وإلا فأين عدو المرأة من صديق المرأة ؟ وأين الرجل الذي يعد المرأة دمية ، من الرجل الذي يعدها نصف هذه الحياة على الأقل ؟ أين الرجل الذي يحسب أن المرأة مما يستخف اللعب به ، والإزراء عليه ، ووضعه في إطار لتعليقه فوق جدران الصالونات ، من الرجل الذي يعرف أن المرأة خلقت لما هو أسمى من اللهو ، وأهم من اللعب ، وأقمن بالجد ! نحن هنا نقول لا لنغضب أحداً ، ولا لنرضي أحداً . . . فأمامنا رجلان لكل منهما مؤلفات ولكل منهما كتب ، ولكل منهما مذهب في الأدب لم يعد من الهين السهل إنكاره أو تجاهله . . . أما أحدهما فيباهي بأنه عدو المرأة ، فهو دائب في الإزراء عليها والتنديد بها والغض من نصيبها في الحياة ،

وأما الآخر فهو فى الجانب الآخر من صاحبه ، لأنه يعد المرأة شيئاً عظيما جداً إن لم يكن أهم من كل شيء ، فهو دائب فى الإشادة بها ، والثناء عليها ، وإجلالها المكان الذى يسمو فوق الرقاعات . والعجيب أن كلا الرجلين فى مركز يبيح له ذلك ، فالأول غير متزوج وليس له أبناء ، ولم يقع على كاهله من مسئوليات الحياة ما يفسد عليه طريقته فى التفكير التى قد يراها حقاً ، ويراها الناس بلاء . ثم هو لم يعرف هذا الشعور الأبوى الجليل ، ولم يسمع بعد مخلوقاً ظريفاً فصل عن قلبه يناديه ذلك النداء الثمين : « بابا ! » أو باللغة العربية الفصحى : « يا أبى ! » ذلك النداء الذى يوشك أن يكون الفرق بين الرجلين ، والذى هو خليق أن يغير الوسيلة التى يفكر بها كل شخص فى هذا الوجود . أكتب هذا يا صديقى عنى ... أكتبه عن فاتنة ... أكتبه معتقداً أنه الحق ، وهو لذلك لن يغضب أحداً ولن يرضى أحداً ... ! إن لم يرض الجميع ... فأكبر الظن أن الجميع عقلاء . ثم هذا هو الوضع الصحيح لكلا الرجلين . فأى غضب وأى رضى ، وأى سخط وأى بشاشة ؟ لماذا يسخط صاحب شهرزاد إذا غضبت شهر زاد الحكيمة الحازمة حين ترى كاتباً يسلم جسمها للعبيد السود ، ويدعى أنها هى التى تصنع هذا وتشتهاه راضية ! لقد حق لشهر زاد أن تثور وأن تسخط إذا كانت شهر زادرمزاً للمرأة فى كل زمان ومكان . لقد حق لها أن تثور وأن تسخط إذا كانت حقاً رمزاً لبناتنا وأخواتنا وأمهاتنا وزوجاتنا ... بل رمزاً للمخلوقة المقدسة التى نصنع سعادتنا وشرفنا وتبنى منزلنا وتغذو أرواحنا ، وتقيم لنا حياة العزة التى نصبو إليها ونحلم بها ، وتملأ دائماً خيالنا وتستأثر بعبادتنا لأنها من الله بل هى جماع ما يأمرنا به الله ... شهرزاد هذه تغضب أشد الغضب ، وتثور أعنف الثورة إذا انحط بها كاتب إلى صفوف العاهرات . وكل رجل لا يغضب معها ويثور لثورتها هو زوج فقد نخوته ، أو أب لا يهمه شرفه ، أو أخ ليس فيه مروءة ، أو ابن معدوم النجدة ، أو قريب ليس عنده نخيزة ...

ولا يصح أن يكون هؤلاء آدميين إذا أخذوا بوجهة النظر الخسيسة

هذه فى شهرزاد ... حينما تكون شهر زاد رمزاً للمرأة ... ثق يا صديقى أن أحداً لن يغضب من هذا الكلام الذى تقوله بلسانى ، لأن أحداً لا يرضى أن ينتسب إلى هذا الصنف من صنوف شهرزاد إلا إذا كان فسلاً أو أفيكا أو مدخولاً فى عقله . لن يرضى أحد أن ينتسب إلى هذا الصنف من صنوف شهرزاد بأبوّة أو أخوّة أو بنوّة أو قرابة ... واليوم الذى يرضى فيه أحد بشيء من هذا هو اليوم الذى تنعكس فيه معايير الأخلاق وتكون الفضائل والرذائل صفات اعتبارية وشعبذات لا قيمة لها إلا فى أفهام النوكى والقماديد ... وإذا صح أن يكون الناس قد صاروا نوكى وقماديد ، صح أن تؤلف لهم قصة عن شهر زاد تهدف بالمرأة إلى هذا الهدف الوضيع الذى يجعل بيوت الناس مواخير فسق ، وأسواقاً للبغايا ... ها أنت ذا تشيع فى وجهك حمرة الخجل يا صديقى لمجرد ذكر هذه الألفاظ التى لم تتعود إيرادها فى أى مما كتبت ، ولكن ما حيلتك وأنت تريد أن تكتب حقاً . ثم ما حيلتك وقد لقيت شهرزاد هذا ذاك الرواج الذى لقيت بين جمهور القراء فهبطت بهم ولم تعل ، واشتركت العوامل التى أوشكت أن تفسد الاتجاه الأدبى فى نهضة هذا الأدب ، إن لم تكن قد أفسدت بالفعل . فإذا جاء كاتب أب ... كاتب له زوج وأبناء وبيت ليكتب عن شهرزاد كتاباً جديداً يدفع به تلك الوصمة التى أخجلت ، وينبغى أن تخجل الأمهات والأخوات والزوجات ، أإذا جاء هذا الكاتب ليكتب ذلك الكتاب ، هب الحراصون يتفيهقون ويقولون إنه إنما سرق ، وإنه إنما سوغ لنفسه أن يدعى لنفسه ما لغيره ، وأن يعيث فساداً فى بستان أخيه ، وأن ينفش فى زرعه ؟ ولماذا ؟ لأن عبارة أو عبارتين اتفقتا فى الكتابين ، وتواردتا فى القصتين ! ناسين أن الكاتبين قد اشتركا فى مصاحبة شهرزاد فى قصرها المسحور ، فكتبا عنها كتاباً يترجم عن فنهما ، ويشرح طريقتهما ، ويحكم لأحدهما